

ثنائية العزّ والذلّ
في القـــرآن الكـــريم

إعداد الدكتور

أحمد نوري نصار الهاشمي

مدرس على ملاك دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية

Ahmednsar882@gmail.com

الملخص

إن دراسة الثنائيات تسعى للتعامل مع الطبيعة الشاملة للنصوص القرآنية، ووقع الاختيار على **(ثنائية العزّ والذلّ في القرآن الكريم)**، عنواناً لهذا البحث، حاولت فيه بيان معاني العز والذل وعلاقتهما بالسياق القرآني، واشتمل البحث على خمسة مباحث بينت فيها تعريف الثنائيات، وتعريف العز والذل، ارتباط العز والذل بالمشيئة الإلهية، وارتباط العز والذل بالمنظومة الأخلاقية الإسلامية، حقيقة العز والذل في التصور الإسلامي، وتغيير التوازن بين العز والذل، وتبين أن العز والذل مرتبط بالمشيئة الإلهية بخلق أسبابه، وأن الإسلام أضفى لكلا من العز والذل مفهوما جديداً يرتبط بتصوره الأخلاقي.

The study of binoculars seeks to deal with the comprehensive nature of Quranic texts. The selection of the two-pronged du'aa 'in the Holy Quran is the title of this research, in which it attempted to explain the meanings of splendor and humiliation and their relation to the Qur'anic context. , The link between the glory and the humiliation of the divine will, and the attachment of glory and humiliation to the Islamic moral system, the reality of splendor and humiliation in the Islamic perception, and change the balance between the splendor and humiliation, and show that the splendor and humiliation is linked to the divine will to create its causes, and that Islam has added to both I Ptsourh moral.

المقدمة

الحمد لله ذي العزة والسلطان والقدرة والبرهان، الّذي خلق الإنسان، علّمه البيان، وأتمّ الدّين، وأعلن البرهان. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله، الّذي ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وأدّبه فأحسن تأديبه، فكان خلقه القرآن، وعلى آله وأصحابه، الّذين نشروا السّنّة والكتاب، بأسلم قلب وأفصح لسان، وعلى التّابعين وتابعيهم، ومن تبعهم ما كرّ الجديدان، وتعاقب الملوان.

أما بعد:فإن القرآن الكريم، لا تنقضي عجائبه، ولا تنضب فرائده، وأعجزت عقول ذوي الأفهام أسراره، وما زال البحث فيه يكشف عما فيه من محاسن ودرر، وأن هذه المعاني المتكاثرة التي يشتمل عليها القرآن الكريم تتطلب مِنَّا تنويع الدرس القرآني، وفي هذا تنويع النتائج، وتكثير المنافع، وإلا فحسب الباحث فيه أجرة الدلال الموصل له هذه الذخائر، وأهمية الموضوع تتأتى من أهمية مصدره.ومن الدراسات الحديثة التي تناولت بعض وجوه الإبداع القرآني، الثنائيات، فهي تنم عن طبيعته الشاملة، وأن دراستها تظهر بعض المعاني التي تدلّ بمحصلتها على مضامين تكاملية يمكن استنباطها من قراءته القراءة المتأنية، والتدبر فيه، ذلك أن ذكر الثنائيات في القرآن الكريم يحدد مضمونها تبعاً لسياقها في الجملة القرآنية، أو تبعاً لسبب النزول، أو لما انطوت عليه العبارة ذاتها من دلالة تركيبية بنائية أو لفظية.ووقع الاختيار على **(ثنائية العزّ والذلّ في القرآن الكريم)**، عنواناً لهذا البحث، حاولت فيه بيان معاني العز والذل وعلاقتهما بالسياق القرآني، وقد وقفت على أربعة آيات ارتبط فيه ذكر العز بالذل، لذلك جاء هذا البحث في خمسة مباحث:المبحث الأول: تعريف الثنائيات، وتعريف العز والذل.المبحث الثاني: ارتباط العز والذل بالمشيئة الإلهية.المبحث الثالث: ارتباط العز والذل بالمنظومة الأخلاقية الإسلامية.المبحث الرابع: حقيقة العز والذل في التصور الإسلامي.المبحث الخامس: تغيير التوازن بين العز والذل.ثم خاتمة البحث.وفهرست المصادر والمراجع.وختاماً أرفع أكف الضراعة، سائلاً المولى تَعَالَى أن يرحمنا يوم تقوم الساعة، وأن نحظى من نبيه الكريم (صلَّى الله عليه وسلَّم) بشرف الشفاعة، وهذا جهدي أقدمه بحسب الوسع والاستطاعة، عسى أن يكون هذا ذخراً لي في يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون، وأن يرحمني وقارئ هذه السطور، إنه سميع بصير، وبالإجابة جدير.

المبحث الأول تعريف الثنائيات، وتعريف العز والذل

أولاً: تعريف الثنائيات:

١ – **الثنائيات لغةً**: لم ترد كلمة (الثنائيات) في معجمات اللغة وقواميسها، فهي مصطلح حادث، ولا يعني هذا عجمتها، أو أنها غير ذات معنى، فلها أصل عربي عريق، وهو اشتقاقها من كلمة (اثنين). وعن أصل الاثنين، قال ابن منظور: "الثِّنْيُ من النوق: التي وضعتْ بطْنَيْنِ. وثِنْيُها: ولدها، وكذلك المرأة"(١).والثنائيات: جَمْع مؤنث سالم لكلمة الثنائي، وهي أي شيء يتكون من اثنين، ومنها الكلمات الثنائية، وهي الكلمات ذات الحرفين، مثل: هل، قد، لو، لم، بل ونحوها (٢). وأصل الثنائي مشتق من ثَنَى يُثَنِّي، وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين، ومنه قولهم: " ثَنَيْتُ الشَّيْءَ ثَنْيًا "(٣).ومنه مثاني القرآن: وهو ما كان أقلَّ من المائتين. وتسمَّى فاتحة الكتاب مَثَانِيَ؛ لأنّها تُثَنَّى في كلِّ ركعة، ويسمّى جميعُ القرآن أيضاً مَثانيَ لاقترانِ آية الرحمة بآية العذاب فيه(٤)." وثَنَّى تَثْنِيَةً: إذا فَعَلَ أمْراً، ثُمَّ ضَمَّ إليه آخَرَ. وثَنَيْتُ الرَّجُلَيْنِ أَثْنِيْهما، وأنَا ثانيهما. واثْنَتَانِ: على تَقْدِيْرِ ضَمِّ إثْنَةٍ إلى إثْنَةٍ؛لا تُفْرَدَانِ. وجاءَ القَوْمُ مَثْنى مَثْنى وثُنَاءَ ثُنَاءَ "(٥).

وعلى هذا فالثنائي في اللغة ما ضم اثنين، أو تكون من اثنين.

٢ – **الثنائيات اصطلاحاً**:عرف الثنائي من الأشياء بأنه " ما كان ذا شقين، والحكم الثنائي ما اشترك فيه فريقان، والمعاهدة الثنائية ما كانت بين أمتين "[٦].وثنائي الإسناد في الحديث ما: "نقل عن الرسول (صلَّى الله عليه وسلَّم) بواسطة سلسلتين من رُواة الحديث، أو عن طريقين من طرق الإسناد"[٧].ويطلق على الطائف التي تتخذ مع الله إلهاً آخر: الثنوية[٨]، ويقولون: "النور مبدأ الخيرات والظلمة مبدأ الشرور"[٩].

وعلى هذا فالثنائيات هي ألفاظ تجمع بينهما علاقة معينة سواء أكانت مضادة أم موافقة، والتي يرتبط ذكرهما معاً في الغالب.**ثانياً: تعريف العز**:ليس المراد هنا بيان المفاهيم المرتبطة بالعز أو بالذلّ، إذ سيجري تناولهما في ثنايا هذا البحث، وإنما المراد بيان المدلول العام لمفردتي العز والذل في اللغة والاصطلاح.ذهب أغلب المعجميين إلى أن العز هو بخلاف الذل[١٠]، ولم يبينوا مفهومه الوضعي أو الدلالي، وأصل العزّ في اللغة: يدل على الغلبة والقهر والقوة، وعلى القلة والندرة.قال الخليل: " ويُقال: عزَّ الشيء، جامِعٌ لكلّ شَيء إذا قلَّ حتى يكادُ لا يُوجدُ من قلَّته يَعِزُّ عِزَّة، وهو عزيز بَيِّنُ العَزازة، ومُلْك أعَزُّ، أي: عزيز"[١١]. اعترض ابن فارس على هذا بقوله: " وهذا وإن كان صحيحاً، فهو بلفظ آخر أحسن، فيقال: هذا الذي لا يكاد يقدر عليه"[١٢].والحقيقة أن كلاً منهما نظر إلى معنى الكلمة، وأصلها، فالخليل يرى أن أصل العز الندرة، في حين أن ابن فارس يرى أن أصلها الغلبة، وهذا الذي يبدو راجحاً، فعزة الله تعالى ليست في الندرة والقلة، بل في الغلبة والامتناع. ومنه قولهم: عزت الشَّاة وتعززت إذا كانت ضيّقة الإحْليل[١٣]، والعزاز: الأرض الصلبة الشديدة[١٤].والعزيز من صفات الله جل وعز وأسمائه الحسنى: الممتنع، فلا يغلبه شيء. وقيل: هو القوي الغالب على كل شيء، وقيل: هو الذي ليس كمثله شيء، ويقال: ملك أعز وعزيز، بمعنى واحد[١٥].العزيز في كلام العرب على أربعة أوجه:

١. الغالب القاهر.
٢. الجليل الشريف.
٣. القوي.

٤.الشيء القليل الوجود المنقطع النظير[١٦].وقال ابن الجوزي: " ذكر بعض المفسرين أن العزة في القرآن على ثلاثة أوجه:**أحدها**: العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[١٧]، وقوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[١٨]. **الثاني**: المنعة، ومنه قوله تعالى:﴿ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾[١٩]. **الثالث**: الحمية، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ ﴾[٢٠]، وقوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾[٢١] [٢٢].في حين قال هارون بن موسى: إن العزة في القرآن الكريم تأتي على ستة وجوه، منها الثلاثة التي ذكرها ابن الجوزي، وزيد عليها:**الرابعة**: الغلظة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ ﴾[٢٣]. **الخامسة**: الشدة، كما في قوله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ ﴾[٢٤]. **السادسة**: التقوية، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ ﴾[٢٥][٢٦].

٢ – **العزة اصطلاحاً**:عرَّف الراغب العزة بقوله: "العِزَّةُ: حالةٌ مانعة للإنسان من أن يغلب"[٢٧].وهذا التعريف قائم على أساس أن العزة هي الغلبة، مما يؤكد أن أصلها الغلبة وليس القلة، وكذلك التعريف الآتي، قال الحرالي: "الغلبة الآتية على كلية الظاهر والباطن"[٢٨].ويؤخذ على التعريف الأول أنه قصر الأمر على الغلبة، والعزة أعم من الغلبة، إذ إن الغلبة أحد معانيها.ويؤخذ على التعريف الثاني أنه قرن الغلبة بالقوة الخارجة، في حين قد تكون العزة ذاتية. ومنه يمكن تعريف العزة بأنها: الوصف أو الحالة التي يمتنع فيها الشيء عن غيره.فالتعريف شامل للغلبة وغيرها من حالات الامتناع، كما أنه لا يقيد العزة بالقوة الخارجة.

ثالثاً: تعريف الذلة:

١ – **الذلة لغة**:قال ابن فارس: "الذال واللام في التضعيف والمطابقة أصل واحد يدل على الخضوع، والاستكانة، واللين. فالذل: ضد العز... والذل خلاف الصعوبة... ومن الأول: رجل ذَلِيلٌ بَيْنَ الذُّلِّ وَالْمَذَلَّةِ وَالذِّلَّةِ. ويقال لما وطئ من الطريق: ذِلٌّ، وَذُلِّلَ الْقِطْفُ تَذْلِيلًا، إذا لان وتدلى. ويقال: أجر الأمور على أَذْلَالِهَا، أي: استقامتها، أي: على الأمر الذي تطوع فيه وتنقاد"[٢٩]. والذلُّ ضد الصعوبة، والذلُّ والمَذلَّة والذِلَّة: ضد العزَّة. والذَلُول ضد الصعب، والذَليل ضد العزيز. وحكي: إن أمور الله جارية على أذلالها، أي: على مجاريها[٣٠]. والذلَّة: "مصدر فِي الذَّلِيل، وَيَقُولُونَ: مَا بِهِ من الذلِّ والقِل، أَي: مَا بِهِ من الذلة والقلة"[٣١].وفرّق الراغب بين الذل بكسر الذال وضمها، فقال: "الذُّلُّ: ما كان عن قهر، يقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ: ما كان بعد تصعّب، وشماس من غير قهر، يقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذِلًّا"[٣٢].أي إن الثاني يكون "ضد الصعوبة وهو الطواعية والانقياد. وقيل: هو ما لم يكن عن قهرٍ بل عن تأب وشماسٍ"[٣٣].

٢ – **الذلُّ اصطلاحاً**:لا يخرج المعنى الاصطلاحي للذل عن المعنى اللغوي، لذلك جاءت تعريفاته لتؤكد المعنى اللغوي، من ذلك:اختار المناويّ قول الراغب بأن: "الذّل بالضم ما كان عن قهر، وبالكسر ما كان عن تصعّب بغير قهر"[٣٤]. ويمثله قول الكفويّ: "الذّل في الدّابّة ضدّ الصّعوبة، وبالضّمّ في الإنسان ضدّ العزّ؛ لأنّ ما يلحق الإنسان أكثر قدراً ممّا يلحق الدّابّة، وقيل الذّل (بالضّمّ) ما كان عن قهر، (وبالكسر) ما كان عن تصعّب، والذّليل في النّاس هو الفقير الخاضع المهان"[٣٥].ويمكن استنباط تعريف للذلة بأنها: حالة يتصف فيه الشيء بالمهانة.وقد جاء الذل في القرآن الكريم، ليعني الأوجه الآتية:**أحدها**: القلّة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[٣٦].**والثّاني**: التّواضع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[٣٨]. **والثّالث**: السّهولة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[٣٩][٤٠].

المبحث الثاني

ارتباط العز والذل بالمشيئة الإلهية

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤١]. **سبب نزول الآية**: قيل في سبب نزولها ثلاثة أقوال:**أحدها**: أن النبي (صلَّى الله عليه وسلم)، لما فتح مكة، ووعد أمته ملك فارس والرّوم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمدٍ ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمداً أخذ مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم [٤٢].**والثاني**: أن النبيّ (صلَّى الله عليه وسلم) سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته، فنزلت هذه الآية [٤٣].**والثالث**: أن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بني إسرائيل إلى غيرهم، فنزلت هذه الآية [٤٤].

والذي يبدو راجحاً هو القول الأول، فهو قول اثنين من الصحابة (رضي الله عنهما).**المعنى العام للآية**: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، أي: يا مالك العباد وما ملكوا وقيل: ملك السماوات والأرض، ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾، يعني: النبوة، وقيل: محمداً وأصحابه، ﴿ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ أبا جهل وصناديد قريش[٤٥].وقيل: تؤتي الملك العرب، وتنزعه من فارس والروم[٤٦].وقيل: تؤتي الملك آدم وولده، وتنزعه من إبليس وجنوده[٤٧]. ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي تعز المهاجرين والأنصار، وتذلك فارس والروم[٤٨].وقيل: تعز محمد وأصحابه حين دخلوا مكة في عشرة آلاف ظاهرين عليها، وتذل أبا جهل وأصحابه حين جزّت رؤوسهم، وألقوا في القليب[٤٩].وقيل: تعز بالإيمان والهداية، وتذل بالكفر والضلالة[٥٠].وقيل: تعز بالطاعة، وتذل بالمعصية[٥١].وقيل: تعز بالنصرة، وتذل بالقهر [٥٢].وقيل: تعز بالغنى، وتذل بالفقر [٥٣].وقيل: تعز بالقناعة، وتذل بالحرص والطمع[٥٤].يعني جل ثناؤه: وتعز من تشاء بإعطائه الملك والسلطان وبسط القدرة له، وتذل من تشاء بسلبك ملكه وتسليط عدو عليه[٥٥].﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾، أي: أنت قادر عليه، فاعل له، لا يقدر على ذلك أحد غيرك[٥٦]، والمقصود أن بيدك الخير والشر، فاكتفى بذكر أحدهما، وإن "تعريف الخير للتعميم "[٥٧]، وأن المعنى: " بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك تتصرف فيه قبضاً وبسطاً حسبما تقتضيه مشيئتك"[٥٨].﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، أي: فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع والجملة تذييل وتأكيد لما تقدم وهي جملة تناسب جميع المعاني المذكورة[٥٩]، وأنت قدير دون سائر خلقك، ودون من اتخذه المشركون من أهل الكتاب والأميين من العرب إلهاً ورباً يعبدونه من دونك كالمسيح والأنداد التي اتخذها الأميون رباً[٦٠].إن جميع هذه المعاني المذكورة متصورة ومعقولة؛ ولكن استناداً إلى قاعدة (العبرة بعموم الفظ لا بخصوص السبب)، فالتعميم أولى، والغاية المقصودة أن الإعزاز والإذلال هو بيده سبحانه وتعالى لا يشاركه فيه أحد، فالعزة المطلقة بيد الله تعالى، ولا ينازعه عليها أحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[٦١]، وقوله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾[٦٢]. فالله تعالى يملك جنس الملك، فيتصرف فيه تصرّف الملاك فيما يملكون، فيعطى من يشاء النصيب الذي قسمه لهم واقتضته حكمته من الملك، وينزع النصيب الذي أعطاه منه، فالملك الأوّل عام شامل، والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل[٦٣]، ولا يكون مُلك أحد من الناس في هذه الحياة، إلاّ مُلك حيازة وانتفاع مؤقت، ولا دوام لملك أحدٍ من المخلوقين.وأتي بلفظ: (وَتَنْزِعُ): من النزع، وهو الأخذ بشدة وبطش، وفي هذه الكلمة ما تنبئ عنه من البطش والقوة، ما يناسب معنى الإيتاء[٦٤].وقال السيوطي: "تؤتي الملك، لم يقل: تؤتيه مع أنّه أخصر؛ لأنّ الملك الأول عام، والثاني بعضه؛ لأن الملك الذي يؤتاه الناس ليس كل الملك الذي الله مالكه، فتعيّن الإظهار"[٦٥]، فلو قال: (تؤتيه) لأوهم أنّه الأول[٦٦].إن الأفعال الواردة في الآية "أفعال خالدة معجزة لا ترتبط بوقت



زمني، فهي قائمة منذ الخليقة حتى يرث الله هذه الأرض الفانية ومن عليها"[٦٧].وهي دالة "على ما يتجدد من فعل الله سبحانه في كل حين"[٦٨]، لذا يمكن للمرءِ أن يشاهدها، فيستدل بها على قدرة الله تعالى وعلى وحدانيته.**من الوجوه البلاغية في هذه الآية**:في الآية ثنائية أخرى بين ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ وبين ﴿ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ ﴾، وكلاهما مشتقان من صفاته المعنوية جلّ اسمه.واشتملت هذه الآية على أنواع من البديع، منها الطباق: وهو الجمع بين المتضادّين، أي: معنيين متقابلين في الجملة ويسمى أيضاً: التضادّ[٦٩]، وهو هنا واقع بين فعلين: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾، و﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾، في قوله: (تؤتي) و (تنزع) و (تعزُّ) و(تُذِلُّ) وفي قوله: (بيدك الخير)، أي: والشرُّ عند بعضهم[٧٠].إن هذه الطباقات لتدل على أنه تعالى وحده الذي يستطيع الجمع بين هذه الصفات المتناقضة التي لا تجمع في غيره.وكذلك اشتملت هذه الآية على التجنيس المماثل، وفيها رد العجز على الصدر ورد الصدر على العجز معاً[٧١].وتتجلى في الآية بنية التقابل، الذي أخذ شكلين متكاملين: الأول تقابل معجمي بين الإتيان والنزع، والإعزاز والإذلال. والآخر تقابل باطني، أو بالأحرى، مفارقة باطنية بين القوة الإلهية والضعف البشرى. وهي مفارقة قد تولدت من الدلالات الهامشية التي حملتها عناصر التقابل في البنية السطحية، "فلا يكفي القول بأن هناك طباقاً بين (تؤتي) و(تنزع) وبين (تعز) و(تذل)، وإنما تنبثق من الموقف أو المواقف المتقابلة صورة الإرادة التي تتصرف في الكون والأشياء بلا حدود، فالإتيان بكل ما يوحي من بسطة وعطاء نزعاً وأخذاً، يتحول إلى منع وقبض، وكذلك الأمر بالنسبة لتعز وتذل، وهكذا تثير الآية موقف العجز الإنساني أمام القوة المسيطرة "[٧٢].هذا وقد اتخذت الصياغة من ناحية أخرى شكلاً بنائياً محكماً في رصد هذه التقابلات، إذ جاءت التقابلات الجزئية في البنية السطحية (تؤتي/تنزع) و (تعز/تذل) متمثلة في بعدين متقابلين أيضاً، الأول جمع بين عناصر حسية، والآخر جمع بين عناصر معنوية، وبامتداد التقابل من العالم المحسوس إلى العالم المجرد تتعمق الدلالة المقصودة وتنتشر على أكثر من مستوى.والسياق في هذه الآية مفهم بالحركة والتبديل والتغيير، فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة. **الدروس المستفادة:** من الآية أن حقيقة العز والذل أمر قد لا تركه العقول، ولا تقف على أسبابه، وقد يكون الإعزاز أو الإذلال من غير سبب ظاهر، ولا وسيلة، فموسى (عليه السلام) خرج ليقتبس النار، فرجع وهو كليم الواحد القهار، وأكرم الخلق عليه ابتداءً منه سبحانه من غير سابقة استحقاق ولا تقدم وسيلة[٧٣].ومن حولنا آلاف الشواهد التي تدل على هذه الحقيقة، فبعض الناس تتوافر فيه بعض الخصال التي تجعله مميزاً متفرداً بين الناس، في حين يتصف غيره بخصال تجعله منبوذاً مكروهاً.وهذه المسألة ليست قاصرة على الإنسان، بل تشمل الحيوان والنبات والجماد أيضًا، فبعض الطيور مثلاً يتنافس الناس للحصول عليه، ويبذلون من أجلها المبالغ الطائلة، في حين يقبع بالقرب منه طير لا يأبه به الناس، ومثاله أيضًا بعض نباتات الزينة التي تدفع فيها مبالغ كبيرة، في حين تداس غيرها بالأقدام، وبعض أنواع الحجارة يقتنيها الناس بمبالغ باهظة مثل الأحجار الكريمة، في حين تسحق غيرها بكل بساطة.فمن تأمل هذا علم بما لا يقبل الشكّ أن المعز والمذل هو الله تَبَارَكَ اسْمَهُ، فهو الذي خلق مسببات هذا كله، وهو الذي رغب الناس في الأشياء وجعل هذا نفيساً عندهم أو خسيساً.ويلحظ أن هذه الثنائية بين العز والذل مترابطة، بينهما وشائج قوية، فإن حظي أمر بالمعزة، تردى ما يقابله بالمذلة، فالشخص الذي يتعزز بالملك، إنما يكون على حساب غيره سلب الملك منه، ومن تعزز بالمال، فإنما حصل هذا على حساب غيره.والإنسان مهما حرص على نيل درجة العز، أو تهرب من درك الذل، فهو يعلم يقيناً أن هذا الأمر لا يكون إلا بتوفيق الله، وهذا ما يسميه عوام الناس أو غير المسلمين ضربة حظ، فالحظ لا نثيب له مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[٧٤]. ولما كانت هذه السورة متضمنة لبيان الأحكام والتشابه في منزل الكتاب بحكم الفرقان، أظهر تعالى في آياتها ما أحكم وبين في خلقه وأمره، وما التبس وأولج في خلقه وأمره، فكان من محكم آية في الكائن القائم الآدمي ما تضمنه إيتاء الملك ونزعه من الإعزاز والإذلال، وكان من الاشتباه إيلاج العز في الذل، وإيلاج الذل في العز[٧٥].

المبحث الثالث

ارتباط العز والذل بالمنظومة الأخلاقية الإسلامية

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٧٦]. **سبب نزولها:** قال الحسن البصري (رحمه الله): علم الله أن قوماً يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم (صلّى الله عليه وسلم)، فأخبرهم أنه سيأتي بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ. وفي المراد بهؤلاء القوم ستة أقوال:**أحدها:** أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) وأصحابه الذين قاتلوا أهل الرّدَّة.**والثاني:** أبو بكر، وعمر (رضي الله

عنهما).**والثالث:** أنهم قومُ أبي موسى الأشعريّ (رضي الله عنه).**والرابع:** أنهم أهل اليمن.**والخامس:** أنهم الأنصار.**والسادس:** المهاجرون والأنصار [٧٧].وقال القرطبي عن القول ثالث: "وهذا أصح ما قيل في نزولها" [٧٨].**المعنى العام للآية:** اشتملت هذه الآية على مضامين مهمة، لعل في مقدمتها بعث القوة في نفوس المؤمنين، وأن الله تعالى ناصر دينه، وأن المسلمين لن يضرهم من خذلهم إن صدقوا النية لله تعالى. وبينت الآية الشريفة أن الله تعالى سيأتي إن ارتد من المسلمين بقوم يرأفون بالمؤمنين ويرحمونهن ويلينون لهم، ويغلظون على الكافرين ويعادونهم، وأنهم يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم بخلاف المنافقين الذين يخافون الدوائر، فدلّ بهذا على تثبيت إمامة الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم)؛ لأنهم جاهدوا في الله عز وجل في حياة رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)، وقاتلوا المرتدين بعده [٧٩].وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ ﴾، شروع في بيان حال المرتدين على الإطلاق، وبيَّن أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين، وفصَّل مصير من يواليهم من المنافقين [٨٠].﴿ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، أي: فسوف يأتي الله تعالى مكانهم بعد إهلاكهم بقوم يحبهم محبة تليق بشأنه تعالى على المعنى الذي أراده، ويحبونه، أي: يميلون إليه جل شانه ميلاً صادقا، فيطيعونه في امتثال أوامره واجتناب مناهيه [٨١].والسبب في تقديم محبة الله تعالى على محبة المؤمنين لله " لشرفها وسَبْقِها، إذ محبتُه تعالى لهم عبارةٌ عن إلهامِهم فعلَ الطاعةِ وإثابته إياهم عليها" [٨٢].﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، أي: عاطفين عليهم متذللين لهم، جمع ذليل لا ذلول؛ فان جمعه ذلل، وكان الظاهر أن يقال أذلة للمؤمنين، كما يقال تذلل له، ولا يقال: تذلل عليه للمنافاة بين التذلل والعلو؛ لكنه عدي بـ(على) لتضمينه معنى العطف والحنو المتعدى بها، وقيل: للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم وأجنحتهم، واستعيرت (على) بمعنى اللام ليؤذن بأنهم غلبوا غيرهم من المؤمنين في التواضع حتى علوهم بهذه الصفة؛ لكن في استفادة هذا من ذاك خفاء، وكون المراد به أنه ضمن الوصف معنى الفضل والعلو، يعني: أن كونهم أذلة ليس لأجل كونهم أذلاء في أنفسهم، بل لإرادة أن يضموا إلى علو منصبهم، وشرفهم فضيلة التواضع لا يخفى ما فيه؛ لأن قائل ذلك قابله بالتضمين، فيقتضي أن يكون وجهاً آخر لا تضمين فيه، وكون الجار على ذلك متعلقاً بمحذوف وقع صفة أخرى لقوم، ومع علو طبقتهم...، الخ، وقيل: عديت الذلة بـ(على)؛ لأن العزة في قوله تعالى: ﴿ ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ عديت بها، كما يقتضيه استعمالها، ومعنى كونهم أعزة على الكافرين أنهم أشداء متغلبون عليهم من عزَّه إذا غلبه [٨٣].﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾، واللومة المرة من اللوم، أي: الاعتراض، وفي اللومة مع تنكير لائم مبالغتان، ووجه ذلك بأنه ينتفي بانتفاء الخوف من اللومة الواحدة خوف جميع اللومات؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم، ثم إذا انضم إليها تنكير فاعلها يستوعب انتفاء خوف جميع اللوام فيكون هذا تتميماً في تتميم، أي: لا يخافون شيئاً من اللوم من أحد من اللوام [٨٤].﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، وفضل الله: لطفه وإحسانه، يؤتيه من يشاء، وإيتاءه إياه، لا أنهم مستقلون في الاتصاف به، والله واسع كثير الفضل، أو جواد لا يخاف نفاد ما عنده سبحانه، عليم مبالغ في تعلق العلم في جميع الأشياء التي من جملتها من هو أهل الفضل ومحله [٨٥].**الإعجاز في هذه الآية:**في هذه الآية إعجاز قرآني، إذ أخبر الله تعالى نبيه الكريم (صلَّى الله عليه وسلم) بردة بعض أمته، ولم يكن ذلك في عهده (صلَّى الله عليه وسلم) وكان ذلك غيباً، فكان على ما أخبر بعد مدة، وأهل الردة كانوا بعد موته (صلَّى الله عليه وسلم)، وكانوا في ردتهم على قسمين: قسم نبذ الشريعة كلها وخرج عنها.وقسم نبذ وجوب الزكاة واعترف بوجوب غيرها، قالوا: نصوم ونصلي ولا نزكي، فقاتل الصديق (رضي الله عنه) جميعهم، وبعث خالد بن الوليد (رضي الله عنه) إليهم بالجيوش فقاتلهم [٨٦].واعترض على هذا بأن من شرطية، والشرط لا يقتضي الوقوع إذ أصله أن يستعمل في الأمور المفروضة.وأجيب بأن الشرط قد يستعمل في الأمور المحققة تنبيهاً على أنها لا يليق وقوعها، بل كان ينبغي أن تدرج في الفرضيات وهو كثير وقد علم من وقوع ذلك بعد هذه الآية أن المراد هذا [٨٧].**الوجوه البلاغية:** في الآية احتراس: وهو أن يؤتى بكلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، أي: يؤتى بشيء يدفع ذلك الإيهام؛ فإنه تعالى لو اقتصر على وصفهم بأذلةٍ على المؤمنين لتوهم أن ذلك لضعفهم، وهذا خلاف المقصود، فأتى على سبيل التكميل بقوله: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [٨٨].وفي الآية "طباقان، وعُدّي (أَذِلَّةٍ) بـ(على)، والأصل تعديته باللام، على تضمين معنى الحُنُوّ والعطف" [٨٩].
الدروس المستفادة:في الآية إشارة واضحة، ودلالة قطعية على وجوب تواضع المؤمنين بعضهم مع بعض، والصفات المذكورة الآية تظهر في " صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززا على خصمه وعدوه" [٩٠].الخطاب في الآية للمؤمنين فيه إشارة إلى أن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ذريعة للارتداد؛ ولأن استمرار فريق من المنافقين وضعفاء الإيمان على موالاتهم فأنبئهم أن الإسلام

غني عنهم[٩١].إن جملة ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ ﴾، جواب الشرط، وهو وعد بان هذا الدين لا يعدم المخلصين، فهو استغناء عن المريضة قلوبهم والمنافقين، وقلة الاكتراث بهم، وتطمين للرسول (صلَّى الله عليه وسلم) والمؤمنين بأنه تعالى يعوضهم خيراً منهم، فالإتيان هنا إيجاد قوم بقلوب تحبه وتذود عنهم، فلفظ (قوم) يشمل من تحقق فيهم وصف المحبة، فهي تغير أحوال القلوب لا الأشخاص، وهذا يشمل من يكون من نفس القوم، وأن الآية مقتضاها ماضٍ إلى يوم الدين[٩٢].أهمية التوازن بين حالتي العزة والذل، فالتوازن لا يتحقق في أن يلازم الإنسان حالة واحدة من العزة أو من الذلة، ولا يكون وسطاً في أي منهما، بل التوازن في العزة فيما يقتضيه مقام الكفار، والتوازن في الذلة فيما يقتضيه مقام المؤمنين، وهو التوازن المطلوب الذي تمليه الحركة الإيجابية مع الموقف، ومعايشته بيقظة وفاعلية. وهذا التوازن الداخلي بين معاني الآية يصاحبه توازن آخر في الشكل، نلحظه بين (أَعِزَّةٍ) وحروفها التي تحمل إيقاعاً قوياً يناسب مقاومة الكفر، وعدم الإذعان له، وبين (أَذِلَّةٍ) ولحروفها جرس رقيق يناسب طبيعة العلاقة بين المؤمنين وما يجب أن تحمله من ملاينة ومسامحة[٩٣].وهذه الآية وإن كانت فيمن ارتد عن دينه، زاهداً فيه ووالى أعداءه، إلا أنها دالة أيضاً على سنة الله في استبدال من ترك أمره، ونكص على عقبيه، فترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصوره المختلفة، التي منها الجهاد في سبيله سبحانه، والبراءة من الكفار وترك موالاتهم، لذا وصفهم في الآية بما يدل على قيامهم بهذه الصورة من المدافعة، من جهاد في سبيل الله وقيام بأمره تعالى، وعدم الاكتراث بلوم اللائمين لهم في ذلك.قدَّم وصف المؤمنين بالذلة على الوصف الأخر العزة، ليبين أهمية ولاء المؤمنين بعضهم لبعض بخلاف المنافقين.إن ارتباط العزة والذلة بالأخلاق متحقق في أن هذه الأخلاق الإسلامية تنساب في حياة المسلمين، ويصطبغ بها سلوكهم، ويقوم على أساسها مجتمعهم، فخلق بذلك من المجتمعات المفككة في جزيرة العرب وخارجها أمة متماسكة[٩٤].

المبحث الرابع

حقيقة العز والذل في التصور الإسلامي

قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٩٥].هذا نمط آخر من أنماط العلاقة بين العزة والذلة، فهناك فارق مهم بين العزة الحقيقة، وبين العزة الموهومة أو العزة الكاذبة.**سبب نزول الآية:** وجاء في سبب نزول هذه الآية أقوال، أصحّها ما رواه جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) غزونا مع النبي ﷺ، وقد ثاب[٩٦] معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لَعَّابٌ[٩٧]، فَكَسَعَ[٩٨] أنصارياً، فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي ﷺ، فقال: «مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ»؟ ثم قال: «مَا شَأْنُهُمْ»، فأخبر بِكَسْعَةِ المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ»، وقال عبد الله بن أبي بن سلول: أقد تداعوا علينا، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبد الله، فقال النبي ﷺ: «لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[٩٩].فلما بلغوا المدينة، أخذ ابن عبد الله السيف، ثم قال لوالده: ((أنت تزعم لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ، فوالله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ﷺ))[١٠٠]. **المعنى العام:** جاءت هذه الآية الشريفة في سياق الحديث عن المنافقين، وبيان بعض معائبهم ونقائصهم، وقد قال ابن أبي سلول مقولته هذه ظناً منه أن قلة عدد المهاجرين في المدينة آذاك لا يؤهلهم الاعتراض أو التصرف، ولكنه فوجئ بالموقف الإيماني الراسخ للأنصار الذين آووا الرسول (صلَّى الله عليه وسلم) ساعة العسرة، وآزروه ونصروه، وعلى وجه الخصوص ولده الذي اتخذ موقفاً مميزاً، دفاعاً عن الرسول (صلَّى الله عليه وسلم).﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ ﴾،أي لئن عدنا إلى المدينة، فلن يكون فيها مقام ولا مأوى لأُولئك المهاجرين الذين ضممناهم وآويناهم وأَطعمناهم فتطاولوا علينا ونالوا منا وهم في غربة وفقر وليس لهم ما يمنعهم منا فلنخرجنهم من ديارنا فنحن الأَعز وهم الأذل.﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: ولله الغلبة والقوة، ولمن أَعزه الله وأَيده من رسوله ومن المؤمنين، وعزهم كان بنصرته تعالى إيَّاهم وإظهار دينهم على سائر الأديان؛ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ولو علموا ذلك ما قالوا مقالتهم هذه[١٠١]. **الوجوه البلاغية:**تتواشج هذه الآية التي فيها مقابلة مع القول بالموجب، وهو رد كلام الخصم من فحوى كلامه، فالآية قلبت كلام المنافقين إذ وصفوا أنفسهم بـالأعز، كناية عن فريقهم، ووصفوا المؤمنين بالأذل، فجعل الله تعالى كلامهم حقيقة؛ ولكن أصبحوا هم الأذل، والله ورسوله والمؤمنون هم الأعزة[١٠٢].فإن قيل: قال تعالى في الآية الأُولى من السورة: (لا يَفْقَهُونَ) وفي هذه الآية: (لا يَعْلَمُونَ) فما الحكمة فيه؟ والحكمة ليعلم بالأول (لا يَفْقَهُونَ) قلة كياستهم وفهمهم، وبالثاني (لا يَعْلَمُونَ) كثرة حماقتهم وجهلهم[١٠٣]. **الدروس المستفادة:**هذه الآية تكشف حقيقة العزة الكاذبة، وأن الادعاء بالعزة لن يجعل الذليل عزيزاً، فبعضهم وبدافع العصبية الضيقة يرى

أن العزّة لا ينبغي أن تكون إلا في نفسه وقومه، أما من سواهم فهم دونه في الفضيلة وفي الحقوق، لذلك عبر عبد الله بن أبي سلول عن نظرته الضيقة بقوله: ((سمن كلبك يأكلك)) [١٠٤].وهو يعني بالأعز نفسه وأتباعه، ويعني بالأذل رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) ومن معه، "وأسندت هذه الأقوال التي قالها عبد الله بن أبي إلى ضمير الجماعة؛ لأنه كان له أتباع من المنافقين يوافقونه عليها"[١٠٥].ومن شيم هؤلاء وخصالهم أنهم يستخدمون كل وسيلة متاحة نصرة لعصبتهم من جهة، والتنكيل بالمخالف لهم من جهة أخرى، ومن ذلك التحريض، وتفريق صفوف المخالفين ليضرب بعهم بعضا.فابن أبي سلول لم يكتف بما قاله، بل أراد أن يبث سموم الفرقة، فوجه كلامه للأنصار: ((ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا، فقُتِلتم دونَه (يعني: النبي ﷺ) فأيتمتم أولادَكم، وقَلَلْتُم وكثُروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضّوا من عند محمد)) [١٠٦].لقد بينت هذه الآية أن رأس النفاق والمنافقين عبد الله بن أبي بن سلول أراد أن تكون الذلة لرسول الله (صلَّى الله عليه وسلم) ولصحبه الكرام من المهاجرين والأنصار (رضي الله عنهم)، وحاشا رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)؛ فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين. إن العزة الحقيقية ليست في الادعاء، ولا في المعايير الدنيوية، من جاه أو مال أو سطوة وغيرها، وإنما العزة الحقيقية في طاعة الله تعالى واتباع دينه القويم، " وكيف يكون المنافق عزيزاً، وهو الذي جعل نفسه وفكره ولسانه ملكاً لغيره؛ فهو قد سلب كل شيء حتى قلبه ولسانه، ومشيئة الله تعالى في العزة والذلة تسير على مقتضى حكمته، فهو لَا يعطي العزة إلا لمن خلَّص قلبه من كل أدران الهوى والشهوة، فالشهوات مردية، ولا يكون عزيزاً بين الناس من يكون عبد شهوته؛ فإن العزة تبتدئ من النفس؛ فإن ضبَط المرء أهواءه وشهواته وسيطر عليها أعطاه العزة، فكان بين الناس عزيزا؛ ومن سيطرت عليه أهواؤه ومطامعه وشهواته كتب الله عليه الذلة، وكان الذليل وإن ظهر أنه العزيز"[١٠٧].إن العزة غير الكبر، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه؛ فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامه عن أن يضعها لأمور عاجلة دنيوية، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلتها، فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة، والتواضع محمود، والضعة مذمومة، والكبر مذموم والعزة محمودة[١٠٨].

المبحث الخامس

تغيير التوازن بين العز والذل

قال تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[١٠٩].حاول المنافقون –كما في الآية السابقة– فرض منهجهم في حقيقة العز والذل، وهنا حالة أخرى، تبين سبب الخلل في التوازن القائم بين العز والذل، والذي يتحقق بتأثير قوى خارجية محتلة، تقلب القيم الأخلاقية، وتعيث فساداً في الأرض، وتجعل أعزة أهلها الذائدين عن بلدهم، الحامين له، أذلة مستضعفين، وفي المقابل يرتفع شأن المداهنين والمنبوذين والمارقين لتقربهم من المحتل من جهة، ولسعيهم للنيل من خصومهم السابقين من جهة أخرى.

المعنى العام للآية:أتت هذه الآية في سياق قصة سليمان (عليه السلام) مع بلقيس ملكة سبأ، إذ بعث إليها رسالة حملها الهدهد، يطلب منهم الاستلام له، واستشارت بلقيس قومها، فأشاروا عليها بالثبات والقتال؛ ولكنها رأت رأياً آخر مهدت له بقولها: إن الملوك إذا دخلوا بلدة قصداً، خربوها ودمروا ديارها وأموالها، لذلك عدلت من الحرب إلى السلم، وكان رأيها سديداً[١١٠]، إذ من عادة الملوك إذا دخلوا بلدة عنوة وقهراً خربوها بالدمار والهلاك، وأهانوا أهلها وأذلوهم بالقتل أو الأسر أو التشريد[١١١].**الوجوه البلاغية:**جاء قول بلقيس على وجه الاعتراض التذييلي، وتقرير له بأن ذلك عادتهم مستمرة، (وكذلك يفعلون) تأكيد لما وصفت من حالهم[١١٢].وقد تفاوتت التعابير الجوابية بينها وبين قومها، إذ قالت مجيبة لهم على سبيل التعريض والتحذير من مغبة الحرب، ويلحظ أن جوابها المصدر بالقول ورد بأسلوب الخبر المؤكد بحرف التأكيد، للاهتمام بالخبر وتحقيقه، فقولها: ﴿ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا ﴾، استدلال بشواهد التاريخ الماضي، ولهذا تكون (إِذَا) ظرفاً للماضي بقرينة المقام، وجملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ استدلال على المستقبل بحكم الماضي على طريقة الاستصحاب، وهو كالنتيجة لإخبارها المؤكد، أو بعبارة أخرى: إنها استدلت بأحداث الماضي وتجاربه، على ما سيقع ويكون في المستقبل. وهي جملة مؤكدة وردت بأسلوب التذييل[١١٣].ويلحظ في هذا الحوار تفاوت في الرتب من جهة الرئيس والمرؤوس وفيه تناوب في الجواب، فقد سألت وأجاب الملأ عن سؤالها بالتصريح وبالتعريض، ثم سُئِلَت هي فأجابت بالتعريض على سبيل الخبر المؤكد تحقيقًا واهتمامًا. مع تضمن جوابها التعريضي لظاهرة لغوية هي التقابل الدلالي بالضد والنقيض، في لفظتي: (أعزة) و (أذلة) ولا يؤتى بالتقابل إلا لغرض، وقد يراد به هنا ترسيخ ما عرَّضت به من ترك القتال، بعرض النتيجة التي قد تؤول إليها الحرب، وهي جعل من كان عزيزاً ذليلاً، وذلك حين تنتهي بالانكسار لا بالانتصار[١١٤]. **الدروس المستفادة:**لقد أخرجت بلقيس نفسها من زمرة الحكام المستبدين، إذ ردت الأمر إلى أشراف قومها، وطلبت منهم مشاركتها في مشكلتها، فالأمر ليس بالهين اليسير؛ لأنه مصير دولة، ومستقبل أمة، وهذا العمل أصل مبدأ الشورى؛ ولكنها لم تجد عند

مستشاريها الرأي الذي تريده، إذ كان جوابهم على استفتائها بأسلوب الحرب والعنف، وكانت هي تريد غير ذلك، وبعد أن استمعت إلى رأيهم، ردَّت الأمر إلى إرادتها.وهي بهذا تنبه إلى طبيعة الاستعمار، فالمستعمرون عندما يغزون بلداً ما، يكون أول همهم إفساد أهل البلاد أخلاقياً واجتماعياً حتى يخضعوهم لسلطانهم، ثم يذلوهم، ويستغلوا خيرات البلاد، وتسخير مواردها لمصلحتهم، لقد كانت بلقيس سياسية داهية، وحاكمة صاحبة عقل راجح، ولقد أدركت أن الدخول في معركة حربية مع ملك لم تعرفه ولم تسمع عنه مغامرة قد لا تحمد عقباها، والكتاب الذي ألقي إليها ينم عن قوة غير عادية، وعلى الرغم من أن مملكتها كانت ذات قوة كبيرة، إلا أن مملكتها نائية عن مملكة الملك الذي أرسل إليها، فإنها تجد في كتابه القادر المتمكن، وإن لم يكن كذلك، فلماذا كتب إليها طالباً حضورها بين يديه؟ دار ذلك كله بعقل بلقيس، فعزمت على أن تعرف حقيقة ذلك الملك قبل أن تغامر بإعلان الحرب، ولم تستبد برأيها، بل عرضته على مستشاريها على الرغم من أنها لم تجد الرأي عندهم في المرة الأولى(١١٥).

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث ألخص أهم ما جاء في: ارتبط لفظي العز والذل بثنائية في أربع آيات من القرآن الكريم.ثبت أن تحقق العز والذل بمشيئة الله تعالى بخلق الأسباب ودواعيه.أن العز والذل وما يترتب عليهما من مزايا ليس مقتصراً على البشر، بل هو عام شامل لجميع مخلوقات الله تعالى.ارتبط كل من العز والذل في الإسلام بمنظومة أخلاقية تستمد قيمها ومفاهيمها من قيم الإسلام، فالعزة الحقيقية هي التي تتأطر بطاعة الله تعالى ورضاه، والذلة الحقيقية هي بترك أوامره، وإتيان نواهيه.إن من سمات المؤمنين التواضع فيما بينهم.إن العزة غير الكبر، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، في حين أن الكبر جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلتها.إن العزة الحقيقية ليست في الادعاء، ولا في المعايير الدنيوية، من جاه أو مال أو سطوة وغيرها.إن الدول المحتلة تغير التوازن الحقيقي بين العزل والذل، بسبب إفسادها في الأرض، فتذل المخلصين من أهل البلاد.إن العلاقة بين العز والذل علاقة مضطردة، إذ إن العز يتحقق على حساب الذل، وبالعكس.والله من وراء القصد.

الهوامش

---

(١) لسان العرب، مادة (ثني) ١٤/١٢٠.

(٢) ينظر: العين،: ١/٤٨.

(٣) مقاييس اللغة، مادة (ثني) ١/٣٩١.

(٤) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،مادة (ثني) ٦/٢٢٩٥ . ٢٢٩٦.

(٥) المحيط في اللغة، مادة (ثني) ١٠/١٧٩.

(٦) المعجم الوسيط، ١/١٠١.

(٧) معجم اللغة العربية المعاصرة، ١/٣٣٣. وينظر: تكملة المعاجم العربية٢/٢١٥.

(٨) ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم،٢/٨٩١.

(٩) مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، ٢/٤٣٨.

(١٠) ينظر: المنجد في اللغة،: ١٢٩؛ الصحاح: مادة (عزز) ٣/٨٨٥؛ مجمل اللغة،: ٦١٣.

(١١) العين: مادة (عزز) ١/٧٦.

(١٢) مقاييس اللغة: مادة (عزز) ٤/٣٨.

(١٣) ينظر: غريب الحديث،: ٤/٣٧٦.

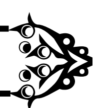
(١٤) ينظر: غريب الحديث،: ١/٨١.

(١٥) ينظر: تهذيب اللغة، مادة (عزز) ١/٦٤؛ عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ،٣/٦٧.

(١٦) ينظر: اشتقاق أسماء الله الحسنى،٢٣٩.

(١٧) سورة الشعراء: من الآية ٤٤.

(١٨) سورة ص: الآية ٨٢.



(١٩) سورة النساء: من الآية ١٣٩.

(٢٠) سورة البقرة: من الآية ٢٠٦٦.

(٢١) سورة ص: الآية ٢.

(٢٢) ينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر،: ٤٣٤– ٤٣٥.

(٢٣) سورة النمل: من الآية ٣٤.

(٢٤) سورة التوبة: من الآية ١٢٨.

(٢٥) سورة يس: من الآية ١٤.

(٢٦) ينظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ٨٥–٨٦.

(٢٧) المفردات في غريب القرآن،: ٥٦٣.

(٢٨) تراث الحرالي في التفسير، ٢٦٤؛ التوقيف على مهمات التعاريف،: ٢٤١.

(٢٩) مقاييس اللغة: مادة (ذلل) ٣٤٥/٢.

(٣٠) ينظر: كتاب الألفاظ،٤٦٣.

(٣١) جمهرة اللغة، مادة (ذلل) ١١٨/١.

(٣٢) المفردات: ٣٣٠.

(٣٣) عمدة الحفاظ: ٤٦/٢.

(٣٤) التوقيف: ١٧١.

(٣٥) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)،: ٤٦٢.

(٣٦) سورة آل عمران: من الآية ١٢٣.

(٣٧) سورة المائدة: من الآية ٥٤.

(٣٨) سورة الإسراء: من الآية ٢٤.

(٣٩) سورة الإنسان: من الآية ١٤.

(٤٠) ينظر: نزهة الأعين النواظر:٣٠٠– ٣٠١.

(٤١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

(٤٢)ينظر: الكشف والبيان٤٠/٣؛ أسباب النزول،: ١٠٠؛ معالم التنزيل،٤٢٥/١؛ زاد المسير في علم التفسير،: ٢٧٠/١.

(٤٣)قاله قتادة. ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن،: ٣٠٠/٦؛ تفسير القرآن العزيز،٢٨٣/١؛ الكشف والبيان: ٤٠/٣

(٤٤)زاد المسير: ٢٧٠/١؛ لباب التأويل في معاني التنزيل،:٢٢٥/؛ البحر المحيط، ٨٤/٣.

(٤٥) الكشف والبيان: ٤٤/٣؛ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٢٠٥/١؛ من دون عزو؛ معالم التنزيل: ٤٢٦/١ ونسبه للكلبي.

(٤٦) تفسير مقاتل بن سليمان،٢٦٩/١؛ الكشف والبيان: ٤٤/٣ ونسبه لمعتصم؛ معالم التنزيل: ٤٢٦/١ من دون عزو.

(٤٧) الكشف والبيان: ٤٤/٣؛ معالم التنزيل: ٤٢٦/١؛ السراج المنير: ٢٠٦/١ من دون عزو.

(٤٨) الكشف والبيان: ٤٤/٣؛ معالم التنزيل: ٤٢٦/١.

(٤٩) ممعالم التنزيل: ٤٢٦/١؛ اللباب في علوم الكتاب،: ١٣١/٥ من دون عزو.

(٥٠) الكشف والبيان: ٤٤/٣؛ معالم التنزيل: ٤٢٦/١ من دون عزو.

(٥١) النكت والعيون،: ٣٨٤/١؛ معالم التنزيل: ٤٢٦/١؛ زاد المسير: ٢٧٠/١ من دون عزو.

(٥٢) المصادر نفسها من دون عزو.

(٥٣) النكت والعيون: ٣٨٤/١؛ تفسير السمعاني: ٣٠٧/١؛ معالم التنزيل: ٤٢٦/١؛ زاد المسير: ٢٧٠/١ من دون عزو.

(٥٤) معالم التنزيل: ٤٢٦/١؛ مدارك التنزيل وحقائق التأويل،: ٢٣٦/١؛ السراج المنير: ٢٠٦/١ من دون عزو.

(٥٥) ينظر: جامع البيان: ٣٠١/٦.

(٥٦) ينظر: جامع البيان: ٣٠١/٦.

(٥٧) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠١/٦.

(٥٨) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ٢١/٢- ٢٢؛ روح البيان في تفسير القرآن،: ١٨/٢.

(٥٩) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٧٧/١؛ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،: ١٦/٢؛ التحرير والتنوير ٤٤/٢.

(٦٠) ينظر: جامع البيان: ٣٠١/٦.

(٦١) سورة يونس: من الآية ٦٥.

(٦٢) سورة فاطر: من الآية ١٠.

(٦٣) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،: ٣٤٩/١-٣٥٠.

(٦٤) ينظر: تراث الحرالي: ٥٥١؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٣١٤/٤.

(٦٥) قطف الأزهار في كشف الأسرار، ٥٧٦/١.

(٦٦) البرهان في علوم القرآن،: ٤٤٨/٢.

(٦٧) الإعجاز النحوي في القرآن، الدكتور فتحي عبد الفتاح الدجني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م: ١٨٢.

(٦٨) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (ت١٣٨٤هـ)، نهضه مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م: ١٠٨.

(٦٩) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع على مختصر تلخيص المفتاح، ٣٤٨.

(٧٠) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون،: ١٠٦/٣؛ اللباب: ١٣٦/٥.

(٧١)ينظر: اللباب: ١٣٦/٥.

(٧٢)فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، الدكتور رجاء عيد، منشأة المعارف بالإسكندرية، مطبعة أطلس، القاهرة، ١٩٧٩م: ٤٦٩.

(٧٣)ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،: ٤٥٧/٢.

(٧٤)سورة القمر: الآية ٤٩.

(٧٥)ينظر: تراث الحرالي: ٥٥٤؛ نظم الدرر: ٣١٨/٤.

(٧٦)سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٧٧)ينظر: التفسير البسيط،: ٤٨٢/٧؛ زاد المسير: ٥٥٩/١-٥٦٠؛ مفاتيح الغيب، ٣٧٨/١٢.

(٧٨)الجامع لأحكام القرآن،: ٢٢٠/٦.

(٧٩) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٢٠/٦.

(٨٠)ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥٠/٣؛ روح المعاني: ٣٢٨/٣؛ محاسن التأويل، المسمى بتفسير القاسمي،: ١٦٨/٤.

(٨١)ينظر: روح المعاني: ٣٢٩/٣.

(٨٢) الدر المصون: ٣٠٧/٤.

(٨٣) ينظر: روح المعاني: ٣٣١/٣.

(٨٤) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل،: ١٣٢/٢؛ السراج المنير: ٣٨٢/١؛ روح المعاني: ٣٣١/٣.

(٨٥) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥٢/٣؛ روح البيان: ٤٠٦/٢؛ روح المعاني: ٣٣١/٣.

(٨٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢١٩/٦.

(٨٧) ينظر: عناية القاضي وكفاية الراضي، ٢٥٣/٣؛ روح المعاني: ٣٢٩/٣.

(٨٨) ينظر: التعريفات،١٣؛ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،: ٢٠٥

(٨٩) قطف الأزهار: ٨١٥/٢.

(٩٠) تفسير القرآن العظيم، ١٢٤/٣.

(٩١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٣٥/٦.

(٩٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣٦/٦.

(٩٣) ينظر: التوازن معيار جمالي– تنظير وتطبيق على الآداب الاجتماعية في البيان النبوي،٧١ – ٧٢.

(٩٤) ينظر: الإسلام والمبادئ المستوردة، عبد المنعم النمر، دار القلم، القاهرة، ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م: ١٢.

(٩٥)سورة المنافقون: الآية ٨.

(٩٦)ثاب: خرج. وثاب: رجع أيضًا. ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ٦٧/٢٠.

(٩٧)لعاب: الذي يعلب بالحراب والدرق. ينظر: المصدر نفسه: ٦٧/٢٠.

(٩٨)كسع: أي ضرب دبره. ينظر: المصدر نفسه: ٦٧/٢٠.

(٩٩)متفق عليه. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه المعروف بصحيح البخاري: كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، ١٨٣/٤، رقم (٣٥١٨)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {هم الذين يقولون: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا} [المنافقون: ٧]، ١٥٤/٦، رقم (٤٩٠٥)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون} [المنافقون: ٨]، ١٥٤/٦، رقم (٤٩٠٧)؛ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بصحيح مسلم، رقم (٢٥٨٤). واللفظ للبخاري.

(١٠٠)جامع البيان: ٤٠٤/٢٣؛ الدر المنثور،١٧٧/٨.

(١٠١)ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم،: ١٤٣٤/١٠.

(١٠٢)ينظر: الإتقان في علوم القرآن،: ٦٤/٤.

(١٠٣)ينظر: مفاتيح الغيب: ٥٤٩/٣٠؛ التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ١٤٣٥/١٠.

(١٠٤)تفسير مقاتل: ٣٣٩/٤؛ تفسير عبد الرزاق،: ٣١٢/٣؛ تاريخ المدينة، ٣٦٥/١.

(١٠٥)التسهيل لعلوم التنزيل، ٣٧٨/٢.

(١٠٦)المغازي، ١٩٨٩م: ٤١٦/٣؛ إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء ٢٠٨/١؛ سبل الهدى والرشاد ٣٤٨/٤.

(١٠٧)زهرة التفاسير،: ١١٦٩/٣–١١٧٠.

(١٠٨)ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ١٤٣٤/١٠.

(١٠٩)سورة النمل: الآية ٣٤.

(١١٠)ينظر: التفسير الوسيط، الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٢هـ.: ١٨٧٤/٢.

(١١١)ينظر: بحر العلوم،٢/ ٥٨١؛ صفوة التفاسير، –١٩٩٧م: ٣٧٥/٢.

(١١٢)ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٨٤/٦.

(١١٣)ينظر: التحرير والتنوير: ١٩/ ٢٦٦.

(١١٤)ينظر: التبيان في البيان، ٣٠٧ – ٣٠٨.

(١١٥)ينظر: نظرات في أحسن القصص، ٢٤٠/٢.